وحدة الوجود

والأستاذ دريني خشبة في مقاله الثالث

للأستاذ معروف الرصافي

كتب الأستاذ دريني خشبة في مجلة (الرسالة) المصرية ، أربع مقالات متتاليات ، تعقب بها « رسائل التعليقات » للرصافي ، وفند بعض ما جاء فيها من أقوال . ونحن هنا لا نريد أن نعرض إلا لمقاله الثالث فقط المنشور في العدد ٥٧٢ من الرسالة

أما مقاله الأول والثاني والرابع فنضرب عنها صفحاً ، لأنها خارجة عن حدود آداب البحث والنقد . والظاهر أنها مكتوبة لغرض آخر غير النقد الذي لا نشك في أن الأستاذ خشبة يعرف حدوده فلا يتعداها ، كما يعرف حقوقه فيرعاها ، وواجباته فيؤديها ؛ إذ وجه فيها إلى الرصافي تهمة هو بريء منها ، ونسب إليه أقوالاً لم يقلها ، وكل ذلك يدل على أنه لم يقرأ رسائل التعليقات ، وإنما تصفحها سريعاً بلا إمعان ولا تثبت ، ولم ينقل عبارات الرصافي بنصوصها ، بل ذكرها ناقصة مقتضبة ومشوهة واكتفى بالإشارة إلى عدد صفحاتها ، ولا شك أن الناقد النزيه لا ينظر في المساوئ فقط ، بل في المحاسن أيضاً ، وقد تعمد في تعابيره القدح والشتم ، مما لا يليق بأقلام النقاد العارفين ، إلى غير ذلك مما يدل على أنه لم يقف فيما كتبه موقف الناقد ، بل موقف الطاعن الحاقد ، لسبب لا نعلمه نحن بل هو

وأما مقاله الثالث المنشور في العدد (٥٧٢) من الرسالة ؛ فإنه قد ترجم فيه للقراء أقوال القدماء من فلاسفة اليونان حول وحدة الوجود كما يزعم هو ، ليثبت بها أن نظرية وحدة الوجود قديمة ، وأنها ليست بأسلامية محضة كما يقول الرصافي

فعلى ذلك نقول : كان يجب على الأستاذ أن يذكر أولاً نظرية وحدة الوجود التي يقول بها أهل التصوف كما ذكرها وصورها الرصافي في رسائل التعليقات ، ثم يأتي بعد ذلك بأقوال فلاسفة اليونان ، لكي يعلم القراء أين تقع هذه الأقوال من وحدة الوجود التي ذكرها الرصافي ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل أهمل ذكرها ، فكان ، بسبب ذلك ، قراء الرسالة في حكمهم كالقاضي الذي سمع رد المدعى عليه من دون أن يسمع دعوى المدعي . ولا ريب أن ذلك مخالف لآداب البحث والنقد

ولنذكر وحدة الوجود التي ذكرها الرصافي في تعليقاته ، ثم نذكر تلك الأقوال ونقارن بينها لكي نرى أين هذه من تلك

وحدة الوجود عند الصوفية

يعبر الصوفية عن ذات الله « بالوجود الكلي المطلق اللانهائي » ويقولون بأنه لا موجود غيره ، وأن هذه الكائنات ما هي إلا مظاهر وصور للوجود الكلي قائمة به ، فليس لها وجود غير الوجود الكلي ، ويشبهون ذلك بأمواج البحر ؛ فكما أن الأمواج ليست سوى مظاهر وصور قائمة بالماء ، وكما أنها لا وجود لها غير وجود الماء ، كذلك هذه الكائنات بالنسبة إلى الوجود الكلي

وهذا الغزل الرقيق الذي يطرفنا به الجارم ، ولا يزال يطرفنا به ، حتى في المؤتمرات الطبية ، ما خطبه ؟ حب من هذه التي لا تزال توحي إلى أستاذنا الجارم هذا الغزل الراقص الرقيق يا ترى ؟ !

لماذا تعدون الكلام في أحاديث القلوب عيباً لا ينبغي ، وأنتم تطرفوننا بكل هذا الغزل الجميل العلوي الخالد ؟

لقد حدثنا العقاد في ساره أحاديث ملفوفة عن وقائع قد تكون فصولاً من كتاب حبه

ولقد حدثنا الحكيم في عودة الروح أحاديث مبرقشة عن وقائع قد تكون فصولاً في كتاب حبه ، الذي ربما كان عصفور من الشرق وراقصة المعبد وبعض قصصه الأخرى فصولاً منه كذلك

ولقد حدثنا المازني أحاديثه الطريفة عن مغامراته بمثل ذلك الأسلوب غير الصريح

أما الأستاذ عزيز أباظة فقد كان أصرح أدباء مصر الحديثة وشعرائها جميعاً ، حينما صارحنا بقصة قلبه في ديوانه الباكي « أنات حائرة »

هذا سؤال ألقيه في جو مصر الأدبي ، وأرجو ألا يثير زوبعة !

وهذا سؤال ألقيه وقد أحسست بالشوك يدمي قدمي وأنا أسير في جنة حب رامي ... هذا الحب الذي خاض الناس فيه كثيراً ، ولم يعرفوا حقيقته إلى الآن .

دريني خشبة

هذا مجمل ما يقال فى تصوير وحدة الوجود التى يقول بها أهل التصوف ويمثلونها بقولهم لا موجود إلا الله وهم فيها مستمدون من الآيات القرآنية ، كما هو مذكور بالتفصيل فى رسائل التعليقات

ما يقوله فيلسوف اليونان

لقد ذكر لهم الأستاذ خشبة أقوالاً كثيرة ، وكلها بعيدة عن وحدة الوجود ؛ فلا نعرض إلا لأقربها حوماً حول الوحدة التى يقول بها أهل التصوف ، وإذا ثبت بطلان هذه ثبت بطلان غيرها بطريق الأولى فنقول :

ذكر الأستاذ فى رقم (٥) أقوال (أجرنوفانس) الذى دعا الناس إلى عبادة الله الواحد الذى ليس كمثله شىء ، والذى تنزه عن الأعضاء فهو سميع كله سمع ، وبصير كله بصر ، وعاقل كله عقل ... موجود فى كل الوجود ، إلا أنه كان يؤمن بأن الله (حال) فى العالم ، وأنه ليس شيئاً غيره . قال الأستاذ وهو فى ذلك أول قائل بوحدة الوجود

فنقول إن القول بالحلول ينافى وحدة الوجود كل المنافاة ، لأنه بحكم الضرورة يقتضى حالاً ومحلولاً فيه . فيكون الوجود وجودين ، لا وجوداً واحداً . فكيف يكون الله حالاً فى العالم ، ويكون ليس شيئاً غيره

والصوفية ينكرون الحلول أشد الإنكار ، ويرون القول به كفراً بوحدة الوجود ، فالعالم عندهم ليس له وجود حقيقى غير الوجود الكلى فهو قائم به ومظهر من مظاهره ليس إلا ، وكذلك الموجة فى البحر ، فإن الماء لا يكون حالاً فى الموجة ، لأن الموجة لا وجود لها غير وجود الماء . فالوجود واحد ، وهو وجود الماء ، والموجة لا وجود لها وإنما هى صورة قائمة بالماء

فإن كان الأستاذ خشبة يرى قول هذا الفيلسوف اليونانى منطبقاً على وحدة الوجود ، فهذه ليست بوحدة الوجود التى قال بها الصوفية فى الإسلام

ثم نقل الأستاذ فى رقم (١٠) بعض أقوال الذريين من فلاسفة اليونان ، فذكر عن (أناجزاجوراس) أنه كان يقول بتعدد العناصر ، وبوجود قوة عاقلة مدبرة حكيمة هى « العقل » تتولى تحريك تلك العناصر ، وتوجيهها وجهة عالية صالحة تضمن جمال الكون ونظامه ، إلا أنه يعتقد قدم العقل والعناصر على السواء ، وأن أحدهما لم يخلق الآخر ، وإن حرك العقل العناصر وألف معها وحدة الوجود

فنقول حق لنا أن نتمثل هنا بالمثل القائل : (صرحت بجدان)، فإن قول هذا الفيلسوف مصرح عن وجودين قديمين . فأى معنى يبقى لقوله فى الجملة الأخيرة : (وإن حرك العقل العناصر وألف معها وحدة الوجود) . وكيف يصح تأليف الوحدة من وجودين قديمين ، وكيف يصح من الأستاذ أن يعتبر هذا الفيلسوف قائلا بوحدة الوجود . نعود هنا فنقول إن الصوفية يقولون بالوجود الكلى المطلق اللانهائى ، وإنه لا موجود فى الحقيقة سواه ، وإن جميع الكائنات ليس لها وجود حقيقى مستقل عن الوجود الكلى ، وإنما هى مظاهر للوجود الكلى ، وصور قائمة به قيام صور الأمواج بماء البحر

نكتفى من تلك الأقوال التى ذكرها الأستاذ بهذين القولين تاركين التعرض لغيرهما ، لأنهما يحومان بعض الحوم حول نظرية وحدة الوجود ، وإن كان بينهما بون بعيد جداً

هذا ما نريد أن نقوله الآن للأستاذ خشبة ، وقد بقى أمران لا بد من التعرض لهما ، الأول أننا نرى الأستاذ خشبة فى مقالاته يتهم الرصافى بأنه : (يدعونا إلى دين جديد) . فعلى هذا نقول :

إن الرصافى فى رسائل التعليقات لم يجىء مقرراً لمبدأ ، ولا واضعاً لمذهب ، وإنما تكلم عن وحدة الوجود التى قال بها كبار الصوفية من قديم الزمان ، فأوضحها وشرح غوامضها ، وكشف النقاب عن وجهها ، وهو فى كل ما قال عنها منتهج مناهج الصوفية الذين يعبر هو عنهم « بفلاسفة الإسلام » ،

سلوا من شئتم ممن عرفوا الرصافى من قريب أو بعيد ، هل ادعى التصوف أو هل تظاهر به ، فانكم لا تجدون من يجيبكم بنعم . على أنكم لو كنتم قرأتم رسائل التعليقات بإحاطة واستقصاء ، لعلمتم أن الرصافى يخالف الصوفية فى بعض أقوالهم ، وينكر عليهم بعضها ، وإن وافقهم فى كثير منها ، لا سيما وحدة الوجود

فالرصافى لم يتكلم فى رسائل التعليقات عن وحدة الوجود دعاية للتصوف ، وإنما تكلم عنها بمناسبة مطالعته كتاب « التصوف الإسلامى » للدكتور زكى مبارك بقصد الاستفادة منه ، لأنه منذ أيام الصبا مولع بمباحث التصوف ، وإن لم يكن هو من الصوفية

وإذا كان هذا هكذا فماذا يريد الأستاذ بقوله إن الرصافى

يدعونا إلى دين جديد ، وأى دين بعني ، وكل من قرأ الرسائل علم أن الرسافى غير داع إلى شيء ، وإنما هو فيما كتبه هناك موضح وشارح ومفسر لا غير ، ولكن الأستاذ أراد التهويل والتشنيع عند العامة فقال هذا القول المخالف للحقيقة من دون مبالاة ، فاللهم غفرا

الثانى : يظهر من الكلمة الأخيرة التي كتبها الأستاذ خشبة فى « الرســـالة » رداً على رسائل التعليقات ، أنه يتهم الصوفية أهل وحدة الوجود كلهم ، لا الرسافى وحده ، بأنهم زنادقة وأنهم إباحيون ، وأنهم مثل الغوريتيين من تلامذة سقراط ينشدون اللذة ، واللذة الجنسية الحسيسة على وجـه الخصوص « وأنهم يقولون بأن الهداية والضلال واحد ، وأن التقى والدعارة صنوان ، وأن المصير واحد » إلى غير ذلك من الأقوال التي ذهبت مشرقة والصوفية مغربون ، وهم منها بريئون ، وعنها بعيدون

إن فى هذه الأراجيف لدليلاً آخر على أن الأستاذ لم يقرأ رسائل التعليقات ، بل مر بها الخطَفى ، فثارت به حميته الدينية ، لا ثقافته العلمية ، فأخذ يقول هذه الأقوال جزافاً ، ويرمى الكلام على عواهنه رمياً من دون تأن ولا تثبت

ولننظر فى الذى دعا الأستاذ إلى هذه التهم ما هو ، فنقول :

لما كان الصوفية يقولون ، كل ما وقع فى هذا الكون فهو حق ، وأنه لا باطل إلا المحال كما هو مذكور فى رسائل التعليقات ، تساوت عندهم المتضادات ، فالشر كالخير والضلال كالهدى كلاهما حق ، لأنه واقع ، ولو كان باطلاً لما وقع ، لأن الباطل هو المحال الممتنع الوقوع . ولكن هذا التساوى فى المتضادات ، إنما هو بالنسبة إلى الوجود الكلي أى إلى ذات الله ، لا بالنسبة إلينا ، فذات الله فى رأيهم لا يصدر عنها الباطل ، بل كل ما صدر عنها فهو حق ، وهم يستدلون على ذلك بآيات من القرآن كما هو مذكور فى رسائل التعليقات

فإذا كان الأستاذ خشبة ينكر عليهم هذا الرأى فما عليه إلا أن يذكر دليلهم ، ثم ينقضه بدليل مثله أو خير منه ، وأن يفسر لنا الآيات التى استدلوا بها تفسيراً يبطل به رأيهم ، وحينئذ نشكر له ذلك شكراً جزيلاً ، ويكون هو أيضاً فى غنى عن اتهامه إياهم هذه التهم المنكرة بغير حق

ولا بد أن الأستاذ خشبة قد قرأ كتاب التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك ، واطلع على ما نقله عن الجيلى من أن الله هو الهادى وهو المضل ، وأن الضال متحقق بصفة الضلال كما أن المهتدى متحقق بصفة الهداية ، وأنهما أمام الله سواء ، كما هو مذكور فى رسائل التعليقات أيضاً . وهذا صريح فى أن تساويهما إنما يكون أمام الله ، أى بالنسبة إلى الله ، لا بالنسبة إلينا

إلا أن الدكتور زكى مبارك حفظه الله لم ينتبه إلى أن هذا التساوى إنما هو بالنسبة إلى الله فقط ، فلذا أخذ فى كتابه يتخوف منه على الشريعة والديانة ، والدولة والقوانين والأنظمة ، بما هو مذكور فى كتاب التصوف الإسلامى ولا حاجة إلى ذكره هنا . ونحن فى رسائل التعليقات قد أوضحنا للدكتور زكى مبارك أن هذه المخاوف واقعة فى غير محلها ، بما لا حاجة إلى تكراره هنا

ولو أن الأستاذ خشبة قرأ رسائل التعليقات واطلع على ما كتبناه فى رد هذه المخاوف ، لما وجه هذه التهم إلى الصوفية الأبرياء ، ولعلم أن القول بتساوى المتضادات ، لا يصادم أحكام الشرع ، ولا يستلزم الفوضى ، ولا يجعل الدعارة فى الناس كالتقوى ، ولا الرذيلة منهم كالفضيلة ، ولكن اتباع الهوى ، هوى النفس هو الذى حمله على هذا التهويل والتشنيع ، حتى نثل ما فى كنانته من تهم منكرة على صدور هؤلاء الأبرياء

ومن المعلوم أنه قد انتسب إلى الصوفية فى الأزمنة الماضية أناس ليسوا منهم ، فكانوا ولم يزالوا فى التصوف أدعياء ، وبالصوفية لصقاء ، وكثروا فى البلاد حتى كانت لهم الزوايا والرباطات والخانقاهات ، وانتشرت بدعتهم حتى كتب فى ذمهم وتوهينهم ما كتب بعض المتحمسين من علماء الدين كابن تيمية وابن القيم وغيرهما

ولا ريب أن هؤلاء ليسوا من الصوفية فى العير ولا فى النفير ، وقد تكلم عنهم الرصافى فى رسائله ونفاهم من التصوف ، واستخرج نفاوتهم من الصوفية فرماها جانباً ، وقال نحن إذا